المبحث الرابع

معرفة الله عند المتكلمين

- معرفة الله عند المعتزلة.
- الأشاعرة وإثبات وجود الله -تعالى-.
- الأدلة على وجود الله تعالى وربوبيته عند أهل السنة والجماعة.

obeikandl.com

المبحث الرابع
معرفة الله عند المتكلمين

- معرفة الله عند المعتزلة:

يـــرى المعتزلة أن معرفة الله تعالى لا تُنالُ إلى عن طريق العقل لا السمع. ومعنى ذلك أنهم يقدمونَ الأدلة العقلية على الأدلة النقلية، يقول القاضـــي عبد الجبار المعتزلي: «الدلالة أربعة، حجة العقل، والكتاب، والســـنة، والإجماع، ومعرفة الله لا تنالُ إلا بحجة العقل. لأن ما عداها -أي حجـــة العقـــل- فرعٌ على معرفة الله تعالى بتوحيده وعدله، فلو اســـتدلنا بشيء منها على الله، والحال هذه كنا مستدْلين بفرع الشيء عـــلى أصـــله، وذلك لا يجوز فإن الكتاب إنما ثبتَ حجة متى ثبت أنه كلام عدل حكيم لا يكذب، ولا يجوز عليه الكذب، وذلك فرع على معرفة الله تعالى بتوحيده وعدله، وأمّا السنة فلأنها إنما تكونُ حجة متى ثبتَ أنها سُنَّة رسول عدل حكيم، وكذا الحال في الإجماع، لأنه إمّا أن يســـتند إلى الكتاب في كونه حجة، أو إلى السنة، وكلاهما فرعان على معرفة الله تعالى»[1].

ويرى المعتزلة أن معرفة الله تعالى لا تتحقق إلا عن طريق النظر، ويقصـــدونَ بذلـــك النظر في الدلالة عن طريق الفكر والتأمل العقلي فـــيقولون: معنى النظر، الفكر، والفكر هو تأمل حال الشيء، والتمثيل بينه وبين غيره، أو تمثيل حادثة من غيرها[2].

وهـــذا يعـــني عندهم أن معرفة الله تعالى تحقق بالفكر والنظر لا

---

(١) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٨٩،٨٨.

(٢) القاضي عبد الجبار، المغني، ص٥.

بالضرورة المشاهدة. والمعتزلة يستدلون على قدم الخالق سبحانه وتعالى بحدوث العالم.

ويُعد القول بحدوث العالم من الأمور البدهية والمسلمة، ومع ذلك فإن المعتزلة أجهدوا أنفسهم بالحجج العقلية للاستدلال على حدوث العالم فهم يثبتون أولاً وجود الأعراض، ثم يقومون بإثبات حدوثها، وما دام العالم حادث، فإن لكل حادث مُحدث، فالعالم إذًا له رب خلقه وأحدثه كما يعتقدون.

والمعتزلة يثبتون حدوث الأعراض بما يجري عليها من العدم والبطلان، فإنها لو كانت قديمة لما جاز عليها ذلك. وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار: «وأمَّا حدوثها، فالذي يدلُ عليه هو ما قد ثبتَ أنه يجوز عليها العدم والبطلان. أمَّا الدليل على أن الأعراض يجوز عليها العدم، فهو ما ثبتَ أن المجتمعَ إذا افترق بطل اجتماعه، وأن المتحرك إذا سكن بطلت حركته. وأمَّا الدليل على أن القديم لا يجوز عليه العدم، فهو ما قد ثبت، أن القديم قديم لنفسه، والموصوف بصفة من صفات النفس لا يجوز خروجه عنها بحال من الأحوال»[1].

وكما أثبتَ المعتزلة حدوث الأعراض بما يجري عليها من العدم، والقديم لا يجوز عليه العدم. فكذلك أثبتوا حدوث الأجسام، لأنها تحتاج إلى مُحدث لها وفاعل. يقول القاضي عبد الجبار: «والطريق إلى معرفة حدوث الأجسام طرق ثلاثة: **أحدهما**: أن نستدل بالأعراض على الله تعالى، ونعرفه بتوحيده وعدله، ونعرف صحة السمع، ثم نستدل بالسمع على حدوث الأجسام. **والثاني**: أن نستدل بالأعراض على الله تعالى ونعلم قِدمه، ثم نقول: لو كانت الأجسام قديمة، لكانت

(١) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٩٤.

مثلاً لله تعالى، لأن القدم صفة من صفات النفس، والاشتراك في صفة من صفات النفس يوجب التماثل، ولا مثل لله تعالى، فيجب أن لا تكون قديمة فوجب أن تكون محدثة.

والثالث: هو الدلالة المعتمدة، وأول من استدل بها شيخنا أبو الهزيل العلاف، وتابعه بقية الشيوخ –أي شيوخ المعتزلة–، وتحريرها هو أن نقول: أن الأجسام لم تنفك من الحوادث، ولم تتقدمها، وما لم يخل من المحدث ولم يتقدمه يجب أن يكون محدثًا مثله»[1].

ويؤكد المعتزلة على حقيقة أن الأجسام إذا لم تنفك عن الأعراض الحادثة ولم تتقدمها فهي حادثة ويقولون: «والدليلُ على صحة ما نقوله، هو أن الجسم إذا لم يخل من هذه الحوادث كحظها وحظ هذه المعاني في الوجود أن تكون حادثة وكائنة بعد أن لم تكن، فوجب في الجسم أن يكون محدثًا أيضًا وكائنًا بعد أن لم يكن»[2].

وهكذا نلاحظ أن المعتزلة بطريقتهم العقلية المتكلفة الجافة حاولوا إثبات حدوث الأعراض والأجسام، ليحققوا بذلك حدوث العالم، وما دام العالم مُحدث، فلا بد له من مُحدِث. يقول أبو الحسين البصري: «استدل شيوخنا –أي شيوخ المعتزلة– رحمهم الله، على أن الأجسام تحتاج إلى محدث، بأن تصرفنا يحتاج إلى مُحدث، لأجل أنه مُحدَث فكان حدوث كل محدث يحوجه إلى محدث، فإذا كانت الأجسام محدثة، احتاجت إلى محدث»[3].

---

(١) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٩٤.

(٢) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص١١٣.

(٣) ابن تيمية، درء التعارض، جـ٨، ص٢٩٥.

الأشاعرة وإثبات وجود الله تعالى

يـــرى الأشاعرة أن الإقرار بربوبية الله عز وجل واجب على كل مكلف، واعتبروهُ أول الواجبات. يقول الإيجي: «معرفةُ الله تعالى واجبة إجماعًـــا وهـــي لا تـــتمُ إلا بالـــنظر، وما لا يتمُ الواجب إلا به فهو واجب»[١].

ومعنى ذلك أن الأشاعرة يتفقونَ مع المعتزلة بأن معرفة الله تعالى طريقها الاستدلال والنظرُ العقلي. يقول فخر الدين الرازي: "إن الطريق إلى إثبات الصانع ومعرفة النبوة ليس إلا بالعقل"[٢].

ولعـــل من الغلو الواضح تقديم العقل على النقل في إثبات ألوهية الله تعـــالى، وهم –أي الأشاعرة– يرونَ كالمعتزلة– أن العقل هو أصل ثـــبوت النقل فيكون –في رأيهم– الاستدلال بالنقل تقديم الاستدلال بالفـــرع أي "الـــنقل" عـــلى الأصل أي العقل. ومن هنا فإن معظم الأشـــاعرة يعظمـــونَ الأدلـــة العقلية، بل ويعتبرونَ الأدلة النقلية ظنية الدلالة.

يقـــول الإيجـــي في المواقف: «ما يتوقف عليه النقل، مثل وجود الصـــانع، ونبوة محمد ﷺ فهذا لا يثبت إلا بالعقل، إذا لو ثبتَ بالنقل لزم الدور»[٣].

إلا أن الإيجي يستدرك على نفسه فيرى أن الأدلة النقلية قد تفيدُ

---

(١) الأيجي، المواقف، ص٣٩.

(٢) ابن تيمية، درء التعارض، جـــ٥، ص٢٣١.

(٣) الإيجي، المواقف، ص٣٩.

اليقين بالقرائن المتواترة فيقول: الحق أن الدلالة النقلية قد تفيد اليقين بقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء الاحتمالات(١).

الأشاعرة والاستدلال على أن الخالق سبحانه وتعالى قديم:

يستخدم الأشاعرة منهج المعتزلة في إثبات القِدم للخالق سبحانه وتعالى عن طريق إثبات حدوث العالم. وتقوم طريقتهم على أربعة أصول هي: إثبات وجود الأعراض القائمة بالأجسام، وإثبات حدوث الأعراض، وإثبات أن الأجسام لا تنفكُ من الأعراض ولا تسبقها، وأخيرًا إثبات أن ما لا يخلو من الحوادث ولا يسبقها فهو حادث فبالنسبة لإثبات وجود الأعراض القائمة بالأجسام فإن الأشاعرة يثبتونَ ذلك بملاحظة ما يجري على الأجسام من تغيرات كالحركة بعد السكون، وكالتفرق بعد الاجتماع، يقول الإمام الباقلاني في الإنصاف: "والدليل على ثبوت أعراض الجسم، تحرك الجسم بعد سكونه، وتفرقة صفاته، فلو كان متحركًا لنفسه، ومتغيرًا لذاته لوجب تركه في حال سكونه، وتغيره واستحالته في حال اعتداله، وفي بطلان ذلك دليل على إثبات حركته وسكونه، وألوانه وأكوانه، وغير ذلك من صفاته"(٢).

وهكذا يحاول الأشاعرة إثبات وجود الأعراض وقيامها بالأجسام، عن طريق ما يجري على الأجسام من تغيرات مختلفة، وهذا التغير إنما يكون لمعنى خارج عنها، وهو وجود الأعراض.

ثم يقول الأشاعرة بإثبات حدوث الأعراض بما تكون عليه من التنافي والتضاد، وهذا يثبت حدوثها عدم قدمها لما يحدث عليها من

---

(١) مرجع سابق، ص٤٠.

(٢) الباقلاني، الإنصاف، ص٢٨.

أضداد مثل بطلان الحركة عند السكون وهذا البطلان أو العدم لا يطرأ على القديم وهذا يدل على حدوث تلك الأعراض لأن القديم لا يحدث ولا يعدم ولا يبطل.

ثم بعد ذلك قام الأشاعرة بإثبات أن الأجسام لا تنفكُ من الأعراض ولا تسبقها فيستحيل تعري الأجسام عن الأعراض، يقول الإمام الجويني وهو رأس من رؤوس الأشاعرة: ((إننا ببديهة العقل نعلم أن الجواهر القابلة للاجتماع والافتراق لا تعقل غير متماسة ولا متباينة))[١].

أمَّا أهم أصول المعتزلة في إثبات الأجسام والجواهر فهو الأصل الرابع، حيث يذكرون فيه أن ما لا يخلو من الحوادث ولا يسبقها فهو حادث. يقول الجويني في الإرشاد: "إذا ثبتَ بما ذكرناهُ، الأعراض وحدوثها، واستحالة تعري الجواهر عنها، واستنادها إلى أول، فيخرج من مضمون هذه الأصول أن الجواهر لا تسبقها، وما لا يسبق الحوادث فهو حادث على الاضطرار من غير حاجة إلى نظر واعتبار[٢].

يقول الإمام الباقلاني في الإنصاف: وإذا اتضح حدوث العالم، فلابد له من محدث أحدثه، ومصور صوره، والدليل على ذلك أن الكتابة لا بد لها من كاتب كتبها، والصورة لا بد لها من مصور صورها، والبناء لا بد له من بناء بناهُ، فإنا لا نشكُ في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت بنفسها لا من كاتب، وصناعة لا من صانع، وحياكة لا من ناسج، وإذا صح هذا وجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها ومحدث أحدثها، إذا كانت ألطف وأعجب صنعًا من

---

(١) الجويني، الإرشاد، ص١٥.

(٢) مرجع سابق، ص١٦.

سائر ما يتعذر وجوده إلا من صانع[١].

وهكـــذا حاول الأشاعرة إثبات حدوث العالم بقسميه الجواهر والأعـــراض، ليقولوا بعد ذلك أن العالم الحادث لا بد له من مُحدث أحدثـــه وإلـــه خلقه وهو الله سبحانه وتعالى، وإذا ثبتَ حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة[٢].

كمـــا حاولوا —كالمعتزلة- أن يردوا على الفلاسفة القائلين بقدم العـــالم وبوقوع حوادث لا أول لها، بإثبات القول بامتناع حوادث لا أول لها، ردوا على هؤلاء الفلاسفة بدليل سموه بدليل التطبيق وهو كما يقـــول الفخر الرازي: إذا فرضنا الحوادث الماضية من اليوم إلى الأزل جملـــة، ومن زمان الطوفان إلى الأزل جملة أخرى، فلا شك أن الجملة الأولى أزيـــد من الجملة الثانية بما بين زمان الطوفان إلى هذا اليوم، فإذا طبقنا في الوهم الطرف المتناهي من الجملة الزائدة على الطرف المتناهي مـــن الجملـــة الناقصة حتى يقابل كل فرد من أفراد إحدى الجملتين بما يشابهه في المرتبة من الجملة الأخرى، فإن لم تنقضي الجملة الناقصة عن الزائدة في الطرف الآخر، كان الشيء مع غيره كهو، لا مع غيره، وهذا محال. وإن انقطعت الجملة الناقصة من ذلك الطرف، كانت متناهية من ذلـــك الطـــرف، وكانت متناهية من جانب الأزل، والزائد زاد عليها بمقـــدار متناه، والزائد على المتناهي بمقدار متناه يكون متناهيًا، فالكل متناه في جانب الأزل[٣].

---

(١) الباقلاني، الإنصاف، ص٤٥،٤٤.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، جـــ١، ص١٨٤.

(٣) الرازي، الأربعين في أصول الدين، ص١٥.

الأدلة على وجود الله تعالى وربوبيته عند أهل السنة والجماعة

دليل الفطرة:

إن الإيمان بوجود الله تعالى أمر مركوز في الفطرة، ولا ينكر ذلك إلا نفر من الملاحدة والدهريين، ومع ذلك فإنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا عند الأزمات والشدائد فيضطرون إلى اللجوء إليه واستغاثته ودعائه.

وقد فطر الله الناس على دينه الإسلام، يقول الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: الإقرار بالله، والاعتراف بالصانع ثابت في الفطرة كما قرره سبحانه في كتابه في مواضع فلا يحتاج هذا إلى دليل، بل هو أرسخ المعارف وأصل الأصول[1].

ومن أجل ذلك كانت دعوة رسل الله -صلى الله عليهم- لتذكير عباد الله بما فطر في نفوسهم وقلوبهم، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مَولود إلاّ يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه».

دلالة خلق هذا الكون الفسيح، وآيات الله الكثيرة المبثوثة في الآفاق والأنفس:

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يجدُ من خلاله دعوة إلى النظر في الكون بما فيه من آيات مبثوثة في الآفاق والأنفس تبين كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى يقول عز من قائل: ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق**

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جـ٢، ص٧٢.

وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ [فصلت:٥٣].

ويقول عز من قائل: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كلِّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقومٍ يعقلون﴾ [البقرة:١٦٤].

إن الأدلة الكونية الدالة على وجود خالق عظيم أبدع كل شيء خلقه كثيرة، ويكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه ويتفكر في عظيم صنعه ليستحقق له عظمة خالقه. يقول العلامة ابن تيمية: «الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دل القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشدَ إليها وهي عقلية فإن كون نفس الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومولودًا ومخلوقًا من نطفة ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول ﷺ، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول ﷺ أو لم يخبر به الرسول ﷺ أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به، فهو دليل شرعي، لأن الشارع استدل به، وأمر به وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته»[1].

المعجزة:

يعرف الجرجاني المعجزة بأنها: أمرٌ خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة، قصد به إظهار صِدق مَنْ ادعى أنه

(١) ابن تيمية، النبوات، ص٩٢.

رسول من الله[١].

والمعجـــزة من أقوى الدلائل على وجود الله تعالى، ولهذا يسميها الله تعالى آيات بينات (فإن انقلاب عصا تقلبها اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلعُ مـــا يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أول دليل على وجود الصانع وحـــياته وقدرتـــه وإرادتـــه وعلمه بالكليات والجزئيات وعلى رسالة الرسول وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك الـــيد، وفرق البحر طرقًا، والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه، ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينًا تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيـــات الأنبـــياء مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله، واليوم الآخر. وهذه من طرق القرآن التي أرشدَ الله إليها عـــباده ودلهـــم بها كما دلهم بما يشاهدونه من أحوال الحيوان والنبات والمطر والسحاب، والحوادث التي في الجو والأرض[٢].

إن الاستدلال بالمعجزات من أفضل طرق الاستدلال على وجود الله تعالى وتصديق رسله ورسالاته.

---

(١) الجرجاني، التعريفات، ص١٩٥.

(٢) ابن القيم، الصواعق المرسلة، جـــ٣، ص١٩٧.